مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 14، العدد 4، (السداسي الثاني 2022م)، ص. 775- 788

عدد خاص بالملتقى الدولي

(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

الجذور الدينية للمجتمعات البشرية في فكر (مالك بن نبي)

The religious roots of human societies in Thought (Malik bennabi)

محمد العابد حشلوف*

جامعة وهران02 – محمد بن أحمد، (الجزائر)

hachmohammedabed@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/03 تاريخ القبول: 2022/10/02 تاريخ النشر: 2022/11/30

ملخص:

سنحاول في هذه المداخلة بوجه عام، إبراز الأصول الدينية للمجتمع البشري لحظة نُشوءه وفي تفسير الحركة التاريخية لهذه النشأة، فهي الأصل الديني لكل تجمُّع بشري عرفه التاريخ، وهي القضية المحورية عند (مالك بن نبي) في هذا المقام.

وفي سياق تحليله لأُصول المجتمع البشري، أشار (مالك بن نبي) إلى ضرورة التوَقُّف والنظر فيما يُسَمِّيه "الميلاد" أو نقطة انطلاق "المجتمع" لممارسة حركته التغييرية نحو أهدافه التاريخية، لأهميَّتها في تحديد المسار المستقبلي لأجيال المجتمع. إذ ترجع أهمية هذه اللَّحظة في تاريخ المجتمع إلى أنَّها هي المنعطف الذي يُحَدِّد كل الخصائص العضوية التي سوف يكون عليها المجتمع في مستقبل أيامه. فلحظة الميلاد هي بمثابة "النطفة" التي تحمل كل الخصائص التي سوف تطبع شخصية الإنسان في مستقبل أيامه... فنتيجة ذلك كله: أنَّ الأصل في كل مجتمع بشري عرفه التاريخ إنَّما هو "الفكرة الدينية."

-فكيف أَصَّلَ (مالك بن نبي) لنشأة المجتمعات البشرية؟ وكيف فَسَّرَ حركتها التاريخية في دورتها الحضارية وفق مرجعية دينية إسلامية؟

* المؤلف المرسل: دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د). تخصص "فلسفة يونانية"

ومن خلال هذا الطرح، سنحاول في هذه الدراسة وفق منهج "تاريخي تحليلي"، إبراز الأصول الدينية للمجتمعات البشرية لحظة نُشوءها، وفي تفسير الحركة التاريخية لهذه النشأة.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي؛ الفكرة الدينية "الإسلام"، الميلاد؛ التاريخ؛ الحركة؛ الفرد؛ المجتمع؛ النهضة؛ الحضارة.

Abstract:

In this intervention in general, we will try to highlight the religious origins of human society at the moment of its emergence and explain the historical movement of this emergence, at is the religious origin of every human gathering known to history, and it is the central issue of (Malik bin Nabi) in this regard.

In the context of his analysis of the origins of human society, Malik Bennabi pointed to the need to stop and consider what he calls “birth” or the starting point of society to practice its change movement towards its historical goals, because of its importance in determining the future course of the generation of society, as the importance of this moment in the history is due to It is the turning point that determines all the organic characteristics that society will have in the future of its days. The moment of birth is like a sperm that bears all the characteristics that will characterize the personality of a person in the future of his days.

Keywords: Malik Bennabi, religious idea “Islam”, birth, history, movement, the individual, society, renaissance, civilization).

مقدمة:

لقد نادى أغلب مفكري مرحلة الفكر العربي المعاصر، بضرورة العودة إلى "الدين" في مختلف القضايا والإشكالات التي عرفتها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، كون العنصر الديني- الإسلامي- بوجه عام، يُغطي قصور العقل البشري ويكمل نقصانه، لأنَّ العقل مهما وصل من درجة إبداع لن يستطيع سد جميع الثغرات التي يمكن أن تكون في مختلف العوائق والمشكلات التي يصادفها، اهتداءً بقوله تعالى: **"...وَمَا أُوتِيتُم مِنَ اَلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)" [الإسراء: الآية 85].**

لذلك، فقد احتل العنصر الديني حيّزاً كبيراً من فكر المفكر العربي الجزائري المعاصر (مالك بن نبي)، كأحد أهم أعلام هذه المرحلة، الذي تناول بالفحص والدرس مختلف تلك الإشكالات التي عرفها المجتمع العربي الإسلامي المعاصر، حيث لا نجد أي أثر له في كتاباته المُتَعَدِّدَة والمُتنَوِّعة في إطار مشروعه الإصلاحي النهضوي إلَّا ونجد فيها بذور التفكير الديني، أو "الفكرة الدينية" بلُغته هو.

ومن بين أهم القضايا المعرفية التي شَكَّلَت الإطار العام لمشروع (مالك بن نبي) الإصلاحي هي: **"الأصول أو الجذور الدينية للمجتمعات البشرية"**، حيث بحث (مالك بن نبي) في أعماق تاريخ التَجَمُّعات البشرية ومنذ الإرهاصات الأولى لنشأتها، بنشأة الحضارات الإنسانية في الشرق القديم (كالحضارة الهندية، والحضارة المصرية الفرعونية...) فاكتشف، أنَّ "الدين" هو الجذر الأصيل لكل تَجَمُّع بشري عرفه سجل التاريخ، فانطلق بعد ذلك في إثبات هذه الرؤية العميقة، ومنه:

- كيف أَصَّلَ (مالك بن نبي) لنشأة المجتمعات البشرية وتفسير حركتها التاريخية وفق مرجعية دينية؟

وللإجابة على هذا الإشكال تطرقنا إلى مجموعة من النقاط المرتبطة بموضوع بحثنا وهي:

(مفهوم المجتمع وأقسامه من منظور (مالك بن نبي)- لحظة ميلاد المجتمعات وجذورها الأولى الدينية- كيفية بناء شبكة العلاقات الاجتماعية عند (مالك بن نبي).

1. مفهوم "المجتمع" وأقسامه من منظور (مالك بن نبي):

يرفُض (مالك بن نبي) أي تعريف للمجتمع لا يأخُذُ بعين الاعتبار البُعد الحضاري للوجود البشري ووظيفة الإنسان في التاريخ. والسبب في ذلك هو أنَّ تعريفاً يخلوا من البُعد الحضاري للوجود البشري، لا يُمكن أن يُقَدِّم تفسيراً واضحاً ومُقنعاً للوظيفة التاريخية التي هي مُبَرِّر وجود المجتمع البشري في هذه الحياة[1]، فأغلب علماء الاجتماع يَتَّفقون على تعريف المجتمع في إطلاقه وعمومه، لكنَّهم يختلفون في الحركة التاريخية للمجتمع، وإذا كان (مالك بن نبي) يَتَّفق مع علماء الاجتماع في التعريف العام للمجتمع فإنَّه يختلف معهم في وظيفته وعن ذلك يقول[2]: **"نذكر أنَّ مصطلح (مجتمع) في معناه البسيط-المعنى الأدبي- الذي يعطيه -القاموس- يعني: تَجَمُّع أفراد ذوي عادات مُتَّحِدَة يعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة"**[3]، وفي نقده لهذا المفهوم يمضي قائلاً[4]: **"وهذا تحديد خارجي وصفي، لا يُعطي أدنى تفسير (للوظيفة) التاريخية التي تناط بتَجَمُّع من هذا القبيل، كما أنَّه لا يُفَسِّر تنظيمه الداخلي، الذي قد يكون كُفئاً لأداء مثل هذه الوظيفة. فمن الضروري إذن أن نزيد في تحديد نطاق موضوعنا. ولذا ينبغي أن نستبدل بالتحديد الوصفي تحديداً جدلياً، وبعبارة أخرى: ينبغي أن نُحَدِّد (المجتمع) في نطاق (الزمن)"**[5]، فهو لا يعدو أن يكون مُجَرَّد تفسير وصفي للمجتمع. ولا شَكَّ في أنَّ عبارة "في نطاق الزمن" ليست إلَّا من قبيل تناول الظاهرة كما هي في الواقع الفعلي للحياة البشرية وفي مرحلة حضارية مُحَدَّدَة لمجتمع ما من المجتمعات البشرية.[6]

وهذا النقد في تحديد المجتمع بوظيفته، يدفعه إلى تقسيم (المجتمع) إلى نوعين:

-المجتمع الطبيعي

- المجتمع التاريخي

---

[1] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ط1، باش جراح (الجزائر)، الشركة الجزائرية اللبنانية، 2009، ص: 160.

[2] زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة (دراسة تحليلية ونقدية)، ط1، بيروت (لبنان)، دار الفكر المعاصر، 1998 ص: 115.

[3] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (ج1)، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دمشق (سوريا)، دار الفكر، 1986، ص: 15.

[4] زكي ميلاد، المرجع نفسه، ص: 115.

[5] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: 15.

[6] عمر النقيب، المرجع نفسه، ص: 160.

وفي توضيح هذين النوعين يقول (مالك بن نبي)[7]:

"والنوع الأوَّل يُحَقِّق نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي تُمَثِّلان هذا النموذج"[8]، فإنَّ هناك نوع من التَجَمُّعات البشرية التي لا تتجاوز مُجَرَّد مُحاولة الاستجابة لمطالب الغريزة وعلى رأسها مطالب الجسد. ويَتَمَثَّل هذا النوع عادة في المجتمعات البدائية التي لم تَتَمَكَّن من القيام بأيَّة محاولة لإحداث تغيير في خصائص أفرادها أو أُسلوب الحياة أو أدواتها منذ لحظة ميلاده. كما يَتَمَثَّل أيضاً في بعض المجتمعات الحديثة التي لم تستطع إحداث تغيير في بنيتها وخصائصها، إذ على الرغم من مرور عقود من الزمان على استقلالها، لم تَتَمَكَّن من بلوغ درجة من البناء الدَّالة على انتقالها من وضعيَّة التَخَلُّف الناتج عن السُكون إلى وضعيَّة التَقَدُّم الناتج عن الحركة التغييرية الهادفة وفقاً لرُؤية رسالية مُتكاملة، لنموذج "الفرد" و"المجتمع" المنشودين[9]: **"فالمجتمع المُتَخَلِّف ليس موسوماً حتماً بنُقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنَّما بافتقار للأفكار"**[10]، وهنا تكمُن الخُطورة إذ تفقد الفكرة وظيفتها، فتُدفن في غياهب اللَّاشعور وأدغال الذاكرة التاريخية.[11]

وذلك لأنَّ أي نشاط يقوم به الفرد، هو ترجمة لمجموعة من الأفكار والتَصَوُّرات التي تسبق الفعل، فإذا كانت الأفكار التي يحملها المجتمع أصيلة وفَعَّالة فإنَّها تدفع بحَرَكِيَّته التاريخية نحو التَطَوُّر، أمَّا إذا كانت.[12]

أمَّا "المجتمع التاريخي": **"فإنَّه يُحَقِّق النموذج المُتَحَرِّك، أعني المجتمع الذي يُعَدِّل معالمه من جذورها"**[13]، فالمجتمع التاريخي هو ذلكم النوع من المجتمع الذي استطاع أفراده أن يتجاوزوا وضعية "المجتمع الطبيعي" بإضفاء بُعد حضاري ودلالة تاريخية على وجودهم

---

[7] زكي ميلاد، نفسه، ص: 116.

[8] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 09.

[9] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 169.

[10] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة : بسام بركة، ط1، دمشق (سوريا)، دار الفكر، 1988، ص: 36.

[11] عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، ط1، وهران (الجزائر)، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، 2006، ص: 71.

[12] محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ط1، المحمدية (الجزائر)، دار قرطبة للنشر والتوزيع 2009، ص: 22.

[13] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 10.

الكوني من خلال إدراكهم لحقيقة الوجود البشري في هذه الحياة والوظيفة التي أُوجِد من أجلها الإنسان. وبناءً على هذا الفهم والإدراك يَتَأَسَّسُ المجتمع التاريخي ابتداءً، أين يُمارس عناصره المُكَوِّنة له نوعاً من التفاعُل القائم ليس على أساس مبدأ المُحافظة على النوع، وإنَّما على أساس أداء رسالة مُقَدَّسَة في الحياة، تليق بمقام الإنسان كمخلوق مُكَرَّم يحظى بمركز مُتَمَيِّز في الكون والحياة[14]: **"وبصفة عامة فعلى محور يُمَثِّل سائر مراحل التَطَوُّر، يحتل المجتمع التاريخي معاصراً كان أو تالياً مرحلة مُحَدَّدَة. والتاريخ يُسَجِّل منها ثلاثاً: (مرحلة المجتمع قبل التحضر- مرحلة المجتمع المُتَحَضِّر- مرحلة المجتمع بعد التَحَضُّر) والمُؤَرِّخون يُمَيِّزون جيِّداً في العادة بين الوضع الأوَّل والثاني ولكنَّهم لم يهتموا بالتمييز بين هذين الوضعين والوضع الثالث...وقد يستغل هذا اللُّبس أحياناً المُتَخَصِّصون في الصراع الفكري، عندما يتولون هم أنفسهم أو يكلفون أحد تلاميذهم محاولة إقناعنا في قياس منطقي خاطئ بفشل الإسلام في بناء مجتمع متقدم ولكي نزيل هذا اللبس نقول: بأنَّ مجتمع ما بعد التَحَضُّر ليس مجتمعاً يقف مكانه بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها".**[15]

وينشأ "المجتمع التاريخي" حسب (مالك بن نبي): **"بطريقتين: فهو إمَّا أن يَتَرَكَّب ابتداءً من مواد جديدة أي من مواد لم تتعرض لأي تغيير تاريخي سابق، فهو يستنفذ هذه المواد في الحالة التي تكون عليها في الطبيعة، وبهذه الطريقة نشأت المجتمعات التاريخية الأولى، إبان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد. ولكن هذا النوع قد يَتَكَوَّن أيضاً من عناصر استُخدمت في مجتمع تاريخي سابق تَحَوَّلت عناصره المُكَوِّنة له بسبب تقادُمه، أو انبساط رُقعته، إلى عناصر مُهَيَّأة للاستخدام في مجتمع جديد. وقد تكون الاستعارة في صورة هجرة تنزع هذه العناصر من المجتمع الأم، كالهجرة التي كَوَّنت المجتمع الأمريكي الحالي، وهو المجتمع الذي تَكَوَّنَ من عناصر قَدَّمَها له مجتمع مُتَحَضِّر في حالة تَوَسُّعه، هو المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر...".**[16]

[14] عمر النقيب، المرجع نفسه، ص: 172.

[15] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص ص: 37..39.

[16] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 10.

وعليه، فإنَّ: "مشكلة الإنسان في العالم الإسلامي مرتبطة بالحركة التاريخية، بل أنَّ للبعد التاريخي باع كبير في مشكلة مصير الإنسان، ولذلك فَسَّرَ (مالك بن نبي) التَحَوُّل التاريخي في مسيرة الإنسان الشاهد، بالسنة الكونية الثابتة المُتَمَثِّلَة في "قانون الدورة"، فلكُلِّ حضارة ثلاثة محطات تاريخية مثلها مثل: الإنسان، ميلاد، قوة، ضعف، أو بمعنى آخر طفولة شباب، شيخوخة، وعليه يكون الإنسان الشاهد قد خضع للحتمية التاريخية السابقة[17]، ولَعَلَّ من المناسب، ونحن نُناقش قانون "الحركة" باعتباره من أهم خصائص "المجتمع التاريخي" المُتَحَضِّر، أن نُشير هنا إلى النموذج (الماليزي) الذي عايشه الكاتب- أي (مالك بن نبي)- عن كثب أكثر من عقد من الزمان، فكان من أهم ما تَمَكَّنَ من ملاحظته أشار إليه (مالك بن نبي) بل وجعله الأصل الذي نُمَيِّز به بين المجتمعات، هو السمة البارزة بل والغالبة على حياة الإنسان فيه. إذ لا تكاد تجد مُؤَشِّرات السكون بارزة في أي منحى من مناحي الحياة البشرية عندهم[18]، لذلك فإنَّ القاعدة العامة التي تُزَوِّدُنا بها الدراسة المُستوعبة لحركة التاريخ وفلسفته، والتي ينبغي أن توَطَّن عليها أجيال المجتمع هي أنَّ **"الثقافة السُننية المتوازنة هي طريق النهضة الحضارية المُتوازنة"**، التي تتحقق بها إنسانية الإنسان، وتحفظ بها كرامته الآدمية، وتُنَمَّى بها كل ملكاته، وتتكامل بها أبعاد شخصيَّته وتتوازن، وتُشحذُ بها فعاليَّتُه وكفاءته الإنجازية، وتتوازن بها حركة المجتمعات، وتُبنى بها نهضاتها الحضارية الفاعلة في التاريخ.[19]

3. فكرة ميلاد المجتمعات وأصولها الدينية وبناء شبكة علاقاتها الاجتماعية:

في سياق تحليله لأصول المجتمع البشري، أشار (مالك بن نبي) إلى ضرورة التَوَقُّف والنظر فيما يُسَمِّيه "الميلاد" أو نقطة انطلاق المجتمع لمُمارسة حركته التغييرية نحو أهدافه التاريخية لأهميَّتها في تحديد المسار المُستقبلي لأجيال المجتمع[20]: **"فالمجتمع هو الجماعة الإنسانية، التي تتَطَوَّر ابتداءً من نقطة يمكن أن نُطلق عليها مصطلح (ميلاد)"**[21]، إذ ترجع أهمية هذه اللَّحظة في تاريخ المجتمع إلى أنَّها هي المنعطف الذي يُحَدِّد كل

[17] عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، ص: 69.

[18] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 173.

[19] الطيب برغوث، النهضة الحضارية ومركزية شرط الوعي الحضاري فيها، الأصالة للنشر والتوزيع، (د.ط)، المحمدية (الجزائر)، 2018، ص: 41.

[20] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 164.

[21] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 16.

الخصائص العضوية التي سوف يكون عليها المجتمع في مستقبل أيامه. فلحظة "الميلاد" هي بمثابة النطفة التي تحمل كل الخصائص التي سوف تطبع شخصية الإنسان في مستقبل أيامه.[22] وهو يعني بهذا أنَّنا نصنع التاريخ حينما نقوم بنشاط مُشترك، والذي يعني تقاسم الأدوار من جهة، وتكامُلها من جهة أخرى، أي يجب أن تكون شبكة علاقاتنا قوية ومُنسجمة ومُتماسكة[23]، لذلك يرى (مالك بن نبي) أنَّ: **"شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأوَّل الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"**[24]، ولن يَتَأَتَّى لنا هذا الانسجام في "شبكة العلاقات" إلَّا إذا استطعنا تغيير نفسية الفرد ونقلناه من حالته الطبيعية أي من كونه مُجَرَّد كائن حي إلى حالته الإنسانية أي إلى كونه كائن اجتماعي أو بمعنى آخر إلَّا إذا حَوَّلناه من مُجَرَّد فرد تُسيطر عليه غرائزه المُختلفة، إلى شخص مُلتزم بواجباته اتجاه غيره من بني البشر الذين تجمعه بهم روابط مُعَيَّنة، قد تكون مادية كما قد تكون روحية، فيُؤَدي واجبه عن قناعة وبإرادة مُلتزماً غير مُلزم، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على صيرورة المجتمع وحَرَكِيَّته التاريخية.[25]

ومن أهم ما نهتدي إليه من معاني عند استحضار فكرة "الميلاد" وأنَّها بمثابة النُطفة، أنَّ من أهم شروط نجاح بناء المجتمع التاريخي المُتَحَضِّر أن يَتَوَفَّر أصحاب المشروع على رؤية شاملة ومُتكاملة عن كل مواصفات المجتمع الثقافية والحضارية للمجتمع المنشود وعن مفاصل عمليَّة البناء بما يضمن النجاح في إنجاز البناء والمحافظة عليه واستمراره في أدائه لرسالته في التاريخ كما حَدَّدَتها له نظرية الحياة التي يَتَبَنَّاها أفراد ذلك المجتمع[26]، ويُوَضِّح ذلك (مالك بن نبي) قائلاً: **"ولكن حين نتحدَّث عن (ميلاد) مُعَيَّن فإنَّا نُعَرِّفُه ضمناً بوصفه (حدثاً) يُسَجِّلُ ظهور شكل من أشكال الحياة المُشتركة، كما يُسَجِّل نقطة انطلاق لحركة التغيير التي تَتَعَرَّض لها الحياة. ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة مُعَيَّنة".**[27]

---

[22] -عمر النقيب، المرجع نفسه، ص: 164.

[23] محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ص: 127.

[24] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: 28.

[25] محمد عاطف، المرجع نفسه، ص: 127.

[26] عمر النقيب، نفسه، ص: 164.

[27] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 16.

والمجتمع ليس كَمّاً من الأفراد وكفى وإنَّما هو بناء مُتكامل تربط بين أفراده روابط مُقَدَّسة إذا ما افتُقِدَتْ تَمَزَّقَ "الجسد الاجتماعي"، ويُؤَكِّد (مالك بن نبي) أنَّ العلاقات الاجتماعية في حقيقتها، ما هي إلَّا تجسيد للعلاقة الروحية بين الله والإنسان، إذ أنَّ هذه الأخيرة تُنشِئُ قِيَماً أخلاقية وهذه بدورها هي التي تُحافظ على ترابط العلاقة الاجتماعية وتماسُكها.. والعلاقتان مُتلازمتان، إذ أنَّ قُوَّة العلاقة الروحية تُؤَدِّي إلى قُوَّة تماسُك العلاقة الاجتماعية، أمَّا ضُعف العلاقة الدينية فيُؤَدي إلى ضُعف وتَمَزُّق شبكة العلاقات بسبب ارتخاء التَوَتُّر واتِّساع الثغرات داخل هذه الشبكة[28]، فالعالم الإسلامي لمَّا اتَّسع واختلطت الألوان والأجناس وتَعَدَّدَت "المِلَلْ والنِّحَلْ" بدأ المجتمع ينهار ويتآكل من الداخل، ويفقد رُويداً رُويداً أسباب العظمة ويكتسب بمهل أسباب الانحطاط والقابلية للاستعمار.[29]

لذلك، يرى (مالك بن نبي) أنَّ للعنصر الديني أهميَّة كبرى في تَطَوُّر المجتمعات، أي من خلال تحويله للطاقة الاجتماعية إلى نشاك جماعي مُشترك، وهذا يعني أنَّ "العنصر الديني" حينما يُؤدي وظيفته الاجتماعية يُقوي شبكة العلاقات ويَشُدُّها إلى بعضها البعض[30]، لذلك:

"نجد أنَّه عندما تقوى العلاقة الدينية وبقدر ما تقوى هذه العلاقة مثلاً بين نقطتي صفر واَ- فإنَّ درجة الفراغ الاجتماعي تَقِل، قلة تُصبح معها صورة المجتمع بعض ما يوحي به قوله ﷺ: "المُؤمنُ للمُؤمِن كالبُنيان يَشُدُّ بعضه بعضا"، فتلك صورة المجتمع الذي لا يوجد فيه فراغ اجتماعي"[31]، مِمَّا يعني أنَّ للدين تأثير كبير في عمليَّة "البناء الحضاري"[32]: **"ومن أجل ذلك كان أوَّل عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمُهاجرين. وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي. لا لأنَّها تَتَّفِق مع عمل شخصي قام به النبي ﷺ ولكن لأنَّها تَتَّفِقُ مع أوَّل عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية..."**.[33]

---

[28] محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماها في فكر مالك بن نبي، ص ص: 131...133.

[29] عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، ص: 70.

[30] محمد عاطف، المرجع نفسه، ص: 149.

[31] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 57.

[32] محمد عاطف، نفسه، ص: 150.

[33] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: 28.

إنَّ "الدين" لما أُشْرِبَ في العقول والقلوب كان مُحَرِّكاً قوياً، استطاع في ظرف وجيز أن يصنع أُمة استحوذت على التاريخ والحضارة ما يُقارب عشرة قرون. لكنَّه لمَّا أصبح مُجَرَّد مظاهر وسلوكات، وأُفرغت نصوصه من مضامينها، تَحَوَّلَ إلى عامل تخدير وهدم. ولقد وجدت كل الأفكار القاتلة في الدين الوسيلة المثلى للعبور إلى ضمائر ونفوس الأشخاص ولقد أصبح مُجَرَّد طقوس وعادات اختلطت بالأعراف القبلية فتوارثتها الأجيال فالدين الإسلامي لم يعد له حضور في شعور إنسان "ما بعد الموحدين"، مثلما كان حاضراً في ذات (عمَّار بن ياسر) و(بلال بن رباح). ويصل (مالك بن نبي) في سياق تحليله للمجتمعات الإسلامية إلى عدة استنتاجات منها:

- مجتمع (ما بعد المُوَحِّدين) شبكة علاقاته مبنية على أساس عشائري، مع غياب الانتماء الإنساني الذي حَثَّ عليه النص القرآني، وعليه فالمجتمعات الإسلامية هي أقرب من حيث البنية والعقلية إلى المجتمعات البدائية لسيطرة الغريزة ومنطق البيوتات.

- والنظام العشائري يُنتج بالقوة اللَّاشعور الجمعي واللَّاوعي، وتلعب الوراثة الاجتماعية الدور البارز في تسفيل الإنسان وتحويله إلى "إنسان الكتلة"، ويُصبح كل ما هو موروث تركة مُقَدَّسَة بدل كونه مُقَوِّماً أو مُعَلِّماً للحياة.[34]

ومنه، فإنَّ المجتمع الإسلامي المعاصر مطالب بإنقاذ سفينته من الغرق بواسطة دينه...وهذا يستدعي ضرورة عمل المسلم على التفكير والتوجيه السليم لاختيار المسوغات المُلائمة لخلق التوتر في هذا المجتمع من جديد، ولا شَكَّ أنَّ أسمى المسوغات هي تلك المرتبطة بعالم الغيب، أو بعبارة أخرى بالبعد الديني لأنَّها تَتَضَمَّن "الكمال المطلق"، وهذا الأخير يُساهم بدرجة أقوى في خلق توتر دائم مرتبط بذلك الشعور الملازم للمسلم والمتعلق بدوره الرسالي في العالم الأرضي...وتحقيق هذا يقتضي ضرورة إرجاع الفاعلية والقوة الإيجابية إلى العقيدة[35]: **"وعليه فليست المشكلة أن نُعَلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنَّما أن نرُدَّ لهذه العقيدة فاعليَّتها وقوَّتها الايجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إنَّ مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة"**[36]، فدور الدين يَتَجَسَّد في إعادة الشعور الحيوي للذات...

[34] - عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، ص ص: 61...71.

[35] محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ص: 152، 153.

[36] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 54.

ولا يقتصر على ترسيخ العقيدة ومِلَّة الأجداد، فمشاكل الأجيال المُتعاقبة، مشاكل حضارية أكثر منها عقائدية كلامية.[37]

غير أنَّ المُلفت للانتباه في هذا المقام أنَّ (مالك بن نبي) يُسَلِّط الضوء على قضية محورية في تفسير الحركة التاريخية لنشوء المجتمع وهي الأصل الديني لكل تَجَمُّع بشري عرفه التاريخ. ويُؤَصِّلُ (مالك بن نبي) لهذه القضية فيُؤَكِّدُ على أنَّه إذا كان "ميلاد المجتمع" يُمَثِّلُ لحظة انطلاق شرارة بناء الحضارة، وأنَّ الحضارة[38]: **"لا تظهر في أُمَّة من الأُمم إلَّا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للنَّاس شرعة ومنهاجا، أو هي - على الأقل- تقوم أُسُسُها في توجيه النَّاس نحو معبود غيبي".**[39]

ومِمَّا يُؤَكِّدُ كلام (مالك)- على سبيل المثال لا الحصر- أنَّ البعد الديني قد لعب دوراً هاماً في (الحضارة المصرية القديمة)، وقد تَبَدَّى ذلك في كل مظهر من مظاهر الحياة عند (الفراعنة) حيث اصطبغ بالصبغة الدينية، فالسياسة والفن والأخلاق والعلم، تأَثَّرت بالدين وارتبطت به ارتباطاً ترك بصماته على حياة الإنسان المصري القديم. وفي (الهند) مَثَّل الإطار الديني والفلسفي، أهم ما أنتجته الآداب الهندية على مدار التاريخ، فقد كان من تستطيع (الهند) أن تحسبهم طوال الشعر الأكبر من تاريخها في عداد الرجال المُثَقَّفين براهميين منهمكين بالدين وليس بالتاريخ[40]: **"فالحضارة لا تنبعث- كما هو مُلاحَظ- إلَّا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولَعَلَّه ليس من الغُلُو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية".**[41]

وإن دَلَّ هذا على شيء فإنَّما يَدُلُّ على عمق الجذور الروحية للمجتمع البشري، إذ هو مُبَرِّر وجوده واستمرار هذا الوجود. وبناءً على هذا يُصبح من غير المعقول تناوُل طبيعة المجتمع بالدراسة وقصدنا من هذه الدراسة سواءً التفسير أو الفهم أم البناء أم إعادة

[37] محمد عاطف، المرجع نفسه، ص: 154.

[38] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 165.

[39] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (د.ط)، بيروت (لبنان)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1986، ص: 51.

[40] سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر)، ط1، بيروت (لبنان)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993، ص: 131.

[41] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: 50.

بنائه، من مراعاة الأصل الروحي للمجتمع البشري بحُكم أنَّ أي مجتمع إنَّما يستَمِدُّ مُبرِّرات وجوده الكوني من مجموعة من القِيَّم الغيبية المُقَدَّسة. بل إنَّ تناول قضية المجتمع خارج إطار جذوره الروحية ليس أقل من تحريف لطبيعة المشكلة وخروج عن إطارها الصحيح[42]: **"فكأنَّما قُدِّرَ للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلَّا حيث يمتَدُّ نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيداً عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريَّته، وتتفاعل معها. ومن هنا يستطيع المُؤمن إدراك الحقيقة الساطعة التي يُفَسِّرُها التاريخ، في الفقرة التي وردت في أحد الكُتُب المُنَزَّلَة القديمة: في البدء كانت الروح".**[43]

إنَّ وظيفة فلسفة الحضارة في التعامل مع أحداث التاريخ، لا بد أن تتعدى مُجَرَّد سرد الواقعة، إلى التحليل والتفسير للوصول إلى جوهر الوقائع ودلالاتها، وبذلك تُساهم الفكرة الدينية في استيعاب حقائق التاريخ ومنطق حركته.[44]

إنَّ مالكاً يُريد أن يُؤَكِّد أنَّ تاريخ الحضارة، يُشهدنا على أنَّ الإنسان ما فتئ يَمُدُّ بصره صوب ما وراء الحقيقة الأرضية، وتجاوز الحقائق الملموسة، لأنَّ الركون عند القريب الملموس والوقوف عند المطالب الدنيا، لا يمكن أن يَتَحَقَّقَ من خلاله تَطَلَعُّاته صوب تحقيق ضرب من الإيجابية الاجتماعية التي تَتَمَيَّز بالتَقَدُّم والرُقي.[45]

ولهذا، فإنَّ (مالك بن نبي) يَشُدُّ انتباهنا إلى أهميَّة مُراعاة هذه الحقيقة الكونية لأي مجتمع إنَّما يعتمد في لحظات بنائه الأولى على مجموعة من المُبرِّرات الغيبية. والدليل على ذلك أنَّه[46]: **"كُلَّما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطَوُّره الاجتماعي وجد سُطوراً من الفكرة الدينية. ولقد أظهر علم الآثار دائماً- من بين الأطلال التي كشف عنها- بقايا آثار خَصَّصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أياً كانت تلك الشعائر، ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنباً إلى جنب مع الفكرة الدينية التي**

[42] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 165.

[43] مالك بن نبي، نفسه، ص: 51.

[44] سليمان الخطيب، المرجع نفسه، ص: 134.

[45] سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر)، ص: 132.

[46] عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص: 165.

طبعت قوانين الإنسان بل علومه، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة"[47]، ومن هنا يَتَعَجَّب المرء من مختلف مُحاولات البناء التي تستهدف بناء مجتمع ذي حضور مُتَمَيِّز في التاريخ لا تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الكونية في حياة البشر بل تتجاوز ذلك في بعض الأحيان لتعتبر مُجَرَّد التنبيه إليها ضرباً من التَخَلُّف والتراجُع، وأنَّ التَقَدُّم والتَحَضُّر ليس إلَّا في اللَّهف وراء الجديد مهما كان.[48]

وفي آخر المطاف، لو عدنا إلى مفهوم "المجتمع" عند (مالك بن نبي)، بجذوره الدينية وحركته التاريخية إلى صفته الأسمى "الحضارة"، سنجد أفضل تجسيد له في "المجتمعات الإسلامية" على مر العصور، لأنَّ: **"جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلَّا شعب بدوي يعيش في صحراء مُجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به... حتى إذا ما تَجَلَّت الروح بغار حراء- كما تجَلَّت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن- نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة حضارة جديدة، فكأنَّما ولدتها كلمة (إقرأ) التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللَّحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظَلَّت قروناً طولاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرقي".**[49]

ونحن لا نقول هذا من باب الإيمان أو العاطفة الدينية فحسب، بل من باب الدراسة والمعرفة والخبرة والمقارنة والتأمُّل في سُنن الاختلاف البشري كذلك.[50]

[47] مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، بيروت (لبنان)، دار الفكر المعاصر، 1987، ص: 69.

[48] عمر النقيب، المرجع نفسه، ص: 165، 166

[49] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 51.

[50] الطيب برغوث، النهضة الحضارية ومركزية شرط الوعي الحضاري فيها، ص: 87.

خاتمة:

ومن خلال ما تطرَّقنا له، يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أنَّ التَجَمُّع البشري أو "ميلاد المجتمعات" بلغة (مالك بن نبي) ومنذ الإرهاصات الأولى لظهورها، لم تكن لتنشأ بطريقة تلقائية آلية، أو بمحض صدفة من الصُدف، وإنَّما كانت وليدة تدبير وتفكير ذو مرجعية "دينية"، مُنَظَّم تنظيماً من شأنه أن يرتقي بالبشر إلى درجة تُمَيِّزُه عن باقي التجمُّعات الحيوانية الأخرى مثل: (مجتمعات النحل والنمل...الخ).

فالظاهرة الدينية خاصية إنسانية بامتياز، وهي التي استوحى منها الإنسان جميع التعاليم والضوابط والقوانين التي تُنظِّمُ حياته وتُأَطِّرُها في مختلف الأنساق التي يمكن أن تُشَكِّل المجتمعات البشرية: (السياسية والاقتصادية والثقافية والتاريخية...)، وخاصة (الأخلاقية) منها.

فبالرغم من الطبيعة المادية للمجتمعات البشرية في ظاهرها، إلَّا أنَّها تحمل في طياتها جوهراً غيبياً ميتافيزيقياً يَتَمَثَّل في "الدين"، وهو أصلها وحامل الحكمة من وجودها.

قائمة المصادروالمراجع:

1- الطيب برغوث، النهضة الحضارية ومركزية شرط الوعي الحضاري فيها، الأصالة للنشر والتوزيع، (د.ط)، المحمدية (الجزائر)، 2018.

2- زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة (دراسة تحليلية ونقدية)، ط1، بيروت (لبنان)، دار الفكر المعاصر، 1998.

3- سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي (دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر)، ط1، بيروت (لبنان) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.

4- عبد القادر بوعرفة، الحضارة ومكر التاريخ (تأملات في فكر مالك بن نبي)، ط1، وهران (الجزائر)، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، 2006.

5- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ط1، باش جراح (الجزائر)، الشركة الجزائرية اللبنانية، 2009.

6- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، بيروت (لبنان)، دار الفكر المعاصر، 1987.

7- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (د.ط)، بيروت (لبنان)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1986.

8- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة : بسام بركة، ط1، دمشق (سوريا)، دار الفكر 1988.

9- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (ج1)، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دمشق (سوريا)، دار الفكر، 1986.

10- محمد عاطف، معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي، ط1، المحمدية (الجزائر)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2009.